شعرية العتبات في ديوان (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) لمحمود درويش

د. فاتح محمد أبوبكر أبوزيان ـ كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية
Dr. Fateh Mohammad Abobakar Abozyyan
البريد الإلكتروني: abuewan2010@gmail.com
الإيميل الجامعي: f.abozyyan@zu.edu.ly

المقدمة :

يهتمُّ هذا البحث بدراسة شعرية العتبات في ديوان (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) لمحمود درويش، في محاولة للولوج في أغوار النص، واقتحام عوالمه، واستكناه مجاهيله، وفكِّ مغاليقه، وإظهار الأبعاد الدلالية والجمالية التي برزت في تجربته الشعرية، والتي تناولها (درويش) في شعره، وأسهمت في تقوية نصه وتجدُّده، لِمَا تتيحه من تشكيل علاقات متآلفة تفاجئ القارئ، وتجذبه نحو كشف الرؤى المُضمرة في النص. تتعلَّق مشكلة البحث بالعتبات، والتي دُرست عند غير شاعرٍ من الشعراء القدماء والمعاصرين، إلاَّ أنَّنا بحاجة للكشف عنها في نصوص لشعراء آخرين؛ لِذا فإنَّ رصد هذه التقنية في ديوان (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) ل (محمود درويش) غاية هذه الدراسة، كما نطرح فيه مشكلة تتعلَّق بالدور الذي تلعبه العتبات في صناعة دلالات النصوص الشعرية المُتضمنة في الديوان، وهل عزَّزت هذه العتبات تلك الدلالات أم أفرزت تساؤلات أخرى؟ ولمّا للعتبات النصية من أهمية بالغة في استيعاب المعنى وتأطير دلالاته، فإنَّ هذا البحث يهدف إلى تسليط الضوء على أهمية دور العتبات النصية في إبراز عدم اكتفاء النص على صوت واحد ضمن الجنس الأدبي الواحد. وبِمَا أنَّ العتبات تعتمد على الرموز والعلامات ودلالاتها في النص، فإنَّنا سنسلك المنهج السيميائي الذي ارتضيناه لهذه الدراسة، فهو خير أنيس بوصفه قادرًا على فكِّ شِفرات ورموز العتبات النصية، وقراءة دلالاتها، واستنباط جماليتها. ومن أهم النتائج التي تمَّ التوصل إليها أنَّ النص الشعري المعاصر مرتبط بالعتبات المحيط به، وأي حذف لتلك العتبات يجعل منه ضائعًا مبثورًا، فهي وسيلة مهمة للولوج إلى النص، وسبيل لسبر أغواره، ومعرفة خباياه. وقُسّم البحث على مبحثين: الأول اهتم بالعتبات النصية: تعريفها، وأشكالها، ووظائفها، والثاني: اعتنى بدراسة شعرية العتبات في ديوان (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) ل(محمود درويش)، حيث تركزتِ الدراسة على عتبة العنوان، ثم عتبة اسم المؤلف، وعتبة الإهداء، وعتبة علامات النشر.

الكلمات الافتتاحية: النص الموازي، المُتعاليات النصيَّة، الأُسطورة، العنوان.

Key words: Epitext. Transtextuality, The legend, Title.

تمهيد:

يُعدُّ مصطلح الشعرية من المصطلحات الأكثر انتشارًا في مجال الدراسات الأدبية والنقدية، والتي تعود نشأتها إلى (أرسطو)، في كتابه المشهور (فن الشعر)، والذي عدَّها المتخصصون أهم شعرية في تاريخها (ناظم، 1994، ص5)، والشعرية محاولة وضع نظرية عامة ومجردة للأدب، بوصفه فنًّا تستنبط القوانين التي يتوجه الخطاب اللغوي بموجبها وجهة أدبية، فهي إذن تشخص قوانين الأدب في أي خطاب(ناظم، 1994، ص9)، وتعود الشعرية الحديثة إلى الشكلانيين الروس، الذين وسَّعوا علم الأدب من خلال الأدب نفسه؛ وبهذا يكون مصطلح الشعرية مصطلحًا قديمًا حديثًا، وفي ظل هذه الفكرة يكون عمله البحث عن القوانين التي تحكم العمل الأدبي.

المبحث الأول ـ شعريّة العتبات النصية:

لم يعد النّص الشّعري المعاصر مجرد قصائد تُجمع وتُطبع في كتاب، وإنّما أصبح نسيجًا من النصوص المُكتوبة والنّصوص الموازية، المُعلنة تارة، والمُضمرة معانيها تارة أخرى، فالنّص الموازي هو عبارة عن ملحقات نصية، وعتبات تتصل بالنّص مباشرة، وتشمل كلّ ما ورد محيطًا بالكتاب من: العنوان، واسم المؤلف، والإهداء، ومعلومات النشر، وغيرها، وسنتناول في هذا المبحث العتبات النّصية، والتي تتمثَّل في الآتي:

أولًا ـ العنوان:

1ـ لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور: "عننتُ الكتاب وأعننته لكذا أي عرضته له وصرفته إليه، وعنَّ الكتاب يعنه عنا وعننه. كعنونه بمعنى واحد، وعنونه عنونة وعنوانا، وعناه؛ وسمه بالعنوان، وقال في جبهته عنوان من كثرة السجود" (ابن منظور، 1997، ص449).

2 ـ اصطلاحًا:

ومن التعريفات الاصطلاحية للعنوان أنَّه: "علامة تضطلع بدور الدليل، دليل القارئ إلى النص سواء على المحتوى الإشاري أو التأويلي ف "العلم" شيء يُنصب في الفلوات تهتدي به الضالة" (خالد، 2007، ص65).

ويرى (قطوس، 2001، ص6) في العنوان أنَّه: "نظام سيميائي، ذو أبعاد دلالية ورمزية وأيقونية، وهو كالنص أفق، قد يصغر القارئ عن الصعود إليه، وقد يتعالى هو عن النزول لأي قارئ، وسيميائيته تنبع من كونه يجسد أعلى اقتصاد لُغوي ممكن يوازي أعلى فعالية تلق ممكنة تغري الباحث والناقد بتتبع دلالاته، مستثمرًا ما تيسَّر من منجزات التأويل"، ممَّا يجعل منه فضاء قائمًا بذاته، ورامزًا لنصِّه، فعَن طريقه تُكتسَبُ بعض الدلالات المركزيَّة للنص الأدبي.

يُعدُّ العنوان علامةً دالةً مصاحبةً للنص، وخير من يساعدنا في الكشف عن غرض المؤلف، فهو أول عتبة للقارئ الذي يستقرئ دلالته على مضامين النص جميعًا، فالعنوان مفتاح الدلالة الكلية التي يستخدمها القارئ الناقد مصباحًا يضيء به المناطق المُعتمة (مفتاح، 1990، ص72)، فالمهتمون بالنص يعدّونه إحالة مرجعية إلى النص كلِّه، تضيء الطريق لفهم النص، وتمهد له، وتُعبَّر عن مضمونه في إيجاز وتكثيف (لحيداني، 2002، ص8)، فهو يحمل دلالات ضمنية تستفزُّ القارئ نحو فعل القراءة والتأويل، إذ إنَّه "جزء لا يتجزأ من استراتيجية الكتابة لدى الناص لاصطياد القارئ وإشراكه في لعبة القراءة، وكذلك هو بُعد من أبعاد استراتيجية القراءة لدى المتلقي في فهم النصّ وتفسيره وتأويله، ومن هنا كانتِ الحاجة مُلِّحة لتحوز العنونة موقعًا لها في خريطة النظرية الأدبية المعاصرة، فهي لا تفتأ تضع إشكاليتها وأسئلتها أمام عتبات القراءة النقدية"(حسين، 2007، ص33).

3 ـ أهمية العنوان:

على الرَّغم من المكانة المهمة للعنوان كونه علامة دالة على النص الفكري والنقدي، إلَّا أنَّه لاقى نوعًا من التهميش، حيث أُبعد لصالح مكونات أخرى أدَّت دورًا في التواصل مع المتلقي، نخصُّ بالذكر (المطالع)، والتي كانت معيارًا للحكم على جودة الشعر، بالإضافة إلى الجمل التي تسبق القصائد الشعرية كصيغٍ تقديمية (يحياوي، 1998، ص108)، وقد حافظ في هذه المرحلة على مكانته، كونه عتبة يتعدى بها إلى غيره (يحياوي، 1998، ص110)، ومع ظهور حركة الشعر الحديث تعالتِ الأصوات الداعية

إلى الاهتمام بعتبة العنونة سواء فيما يخصُّ الجانب الإبداعي، أو من خلال الدراسات السيمولوجية التي عنت بالعنوان بوصفه علامة تسم النص، وتبرز مجموع الدلالات المركزية فيه (يحياوي، 1998، ص110)؛ وبهذا فإنَّه تربطه علاقة مع مكونات النص، وأنَّ عملية اختياره لا تخلو من القصدية، وتنفي عنه معيار الاعتباطية في اختيار التسمية.

4 ـ فضائية العنوان:

وهي المساحة التي نجد فيها العنوان، وتكون في أربعة أماكن: مقدمة الغلاف، وظهر الغلاف، وصفحة العنوان، والعنوان المختصر، وهذه الفضاءات تُآزر العنوان المركزي، وتجعل منه أكثر دلالة ضمن مظاهر الفضاء العنواني، حيث لا نكاد نجد خروجًا عنه إلَّا في بعض الطبعات، والتي تشذُّ عن نظام إخراج الكتاب بمختلف عناصره، ولا تلتزم بالجدية المطلوبة فيه (منصر، 2007، ص42).

5 ـ وظيفة العنوان:

يرى بعض الباحثين أنَّ وظائف العنوان تكمُن في تحديد هوية العمل، وتعيين مضمونه، وإبراز ما فيه من قيمة (منصر، 2007، ص45)، غير أنَّ هذه الوظائف لا تجتمع بالضرورة ، فقد تبدو ضرورية في الأولى فيما قد تتخلَّف عن آداء الوظيفة في الثانية والثالثة، وذلك عندما يكون العنوان "أجوفًا دلاليًّا"، كما أنَّ هذه الوظائف تفتقر إلى عنصر الترابط؛ وذلك بأن يكون العنوان معينًا له القدرة على تحديد هوية العمل، وإنجاز فعل التسمية، وله القدرة على الإغواء، بصيغ أسلوبية واستعارية فاتنة، دون أن يكون قادرًا على مضمون العمل، تاركًا القارئ في مواجهة العمل مباشرة، أو الاستعانة بوسائل فنية أخرى؛ بغية تحديد مضمون النص.

وقد يحدث ـ في بعض الأحيان ـ افتقاد العنوان لوظيفته التميزية؛ نظرًا لتقاسم الاسم أكثر من كتاب، وهنا يعمل اسم المؤلف ودال الجنس الأدبي وغيرهما من عناصر النص الموازي على ملئها، وقد يعجز عن آداء هذه الوظيفة؛ لاصطدام المضمون بالصياغة الرمزية الغامضة غير قابلة للقياس الموضوعي، لتبقى عاجزة يعتريها القصور، حتى يُحدِّد في النص شيء آخر غير المحتوى المباشر أو الرمزي، من خلال انفتاحه على الشكل أو الجنس الأدبي بطريقة تقليدية أو حديثة متفردة (منصر، 2007، ص46).

ثانيًا ـ اسم المؤلف:

إنَّ اسم المؤلف أو الكاتب من بين الأركان الأساسية المهمة للعناصر النصية، والتي لا يمكن تجاهلها؛ لأنَّها تُشكِّل العلاقة المُميزة بين كاتب وآخر، ومن خلاله يُحقِّق ملكيته

الأدبية والفكرية على أعماله، دون الحاجة إلى النظر ما إذا كان الاسم حقيقيًّا أو مستعارًا، أمَّا مكان ظهوره فهو في الغالب يتموضع في صفحة الغلاف، وفي صفحة العنوان وفي باقي قوائم النشر، والملاحق، ويكون في صفحة الغلاف في أعلاها بخط بارز وغليظ، لإشهار كتابه وإعلان ملكيته له (جونات، 2008، ص63 - 64).

1 ـ أشكاله:

يمكن حصر المؤلف في ثلاثة أشكال:

أ ـ الاسم الشخص:

وهو الأكثر شيوعًا ويدل على الحالة المدنية للكاتب (جونات، 2008، ص64)، وتكون مبرراتُ التصريح به قوية، خاصة عندما يكون شخصًا مشهورًا، فيُصدر كتابًا يرتهن نجاحه بتوظيف شهرته السابقة، ومن هذا المنطلق يكون إعلانه عن الهوية لخدمة منشوراته، غير أنَّنا لا يمكن إغفال أنَّ عنوان الكتاب ذاته قد يُوظَّف في خدمة الهوية والاسم الشخصي، إذا كان المؤلف يسعى للشهرة من خلال موضوعات الكتاب ذاته.

ب ـ الاسم المستعار:

وهو ما دلَّ على غير الاسم الحقيقي كأسماء الشهرة، ويتحقَّق الاسم المستعار عندما يضع المؤلف اسمًا غير اسمه في سجل الحالة المدنية، كأن يضع الاسم المستعار من حقول معرفية: (فلسفية / أسطورية/ صوفية) وغيرها، أو مرتبطًا بإرغامات سياسية، أو اجتماعية تتطلَّب التقنَّع وراء الاسم المستعار (منصر، 2007، ص39)، وكيفما كانتِ الأسباب فإنَّ الاسم المستعار يفتح المجال للاجتهاد واسترداد الحقيقة وكشف القناع، ويُحقِّق للمؤلف شهرة تسمح له بتداولية واسعة في أوساط المتخصصين أو الجمهور العام.

ج ـ الاسم المجهول:

وهو ما لم يدل على أي اسم، بحيث يكون العمل يفتقر إلى التوقيع، لأي سبب من الأسباب، ويُحرم كاتبه من ممارسة سلطته الوظيفية (المؤلف) على عمله، ويتركه في عزلة مؤقتة أو دائمة، ومثل هذه الأعمال كانت مستساغة في الزمن الوسيط وعصر بداية النهضة (منصر، 2007، ص40)، حيث كان الإفصاح عن الاسم مدعاة إلى النقد والمحاسبة الاجتماعية، أما في العصر الحديث فلم تعد مثل هذه الأعمال لها ما يُحفِّزها، سواء من خلال العوائق السياسية أو الاجتماعية، أو من خلال الرغبة في الكشف عن مصدر كاتبي النصوص.

2 ـ وظائف اسم الكاتب:

يمكن حصر الوظيفة المرتبطة باسم الكاتب في الآتي:

أ ـ وظيفة التسمية: وتعمل هذه الوظيفة بإثبات هوية العمل لمؤلفه، ووضع اسمه عليه.

ب ـ وظيفة الملكية: تختص هذه الوظيفة بإعطاء أحقية الكتاب لاسم مؤلفه، علامة على ملكيته الأدبية والقانونية لعمله، وتقف دون أحقية التنازع عليه.

ج ـ وظيفة إشهارية: وهي الواجهة الإشهارية للكتاب وصاحبه، والتي يكون اسمه في القسم العلوي، ليخاطبنا بصريًّا لشرائه (جونات، 2008، ص64 ـ 65).

ثالثًا ـ الإهداء:

تندرج عتبة الإهداء ضمن التقليد الثقافي، وتنمُّ عن لباقة أخلاقية، فهي تقترب من التقريظ الذي كان معمولًا به في العصور الأدبية القديمة، وبما أنَّه عتبة خارجية للنص، فقد جرى تهميشه والقفز عليه ـ عند بعض الكتاب ـ ظنًّا منهم بعدم أهميته في الأعمال الأدبية، إلَّا أنَّه حظي باهتمام الكتاب في العصر الحديث، من خلال خلقه مشروع التوازي مع النص الذي يتمُّ إهداؤه (حمداوي، 2021).

1 ـ عناصر الإهداء:

أ ـ المرسل:

مرسل الإهداء في أي كتاب أو عمل هو الكاتب نفسه، غير أنَّه ليس الركن الوحيد المسؤول عن هذه العملية، فالمترجمون ـ على سبيل المثال ـ قد يضيفون إهداءات بجانب الإهداء في النص الأصلي، ضمن سياق ثقافي اجتماعي مختلف عن الإهداء الأصلي.

ب ـ المرسل إليه:

ويمكن حصر هذا العنصر من منظورين:

1ـ الإهداء الخارجي: ويندرج تحته

أ ـ **الإهداء الخاص**: وهذا النوع من الإهداء يكون إلى شخصية غير مشهورة، وفي الغالب تتعلَّق اجتماعيًّا بصاحب العمل.

ب ـ **الإهداء العام**: ويكون للشخصيات المعروفة لدى الجمهور، وعادة ما يرفع له هذا الإهداء عرفانًا له بجميل المساعدة، أو لكيانات اجتماعية (أحزاب/ جمعيات) إقرارًا لهم وعرفانًا بالجميل.

2 ـ الإهداء الذاتي:

وهذا العنصر من الإهداءات يقدمه المؤلف أو المترجم لنفسه، ليعبر عن انحراف وتلاعب، يحقَّق المؤلف به نوعًا من الإثارة والتشويق (جونات، 2008، ص55)، وقد يغيب الإهداء ولا يكون موجهًا لأحد كأن يقول فيه: لا أجد إنسانًا يستحق هذا الكتاب أو نحوه، وهذا الانحراف يُمثِّل درجة الصفر التي وصل إليها المؤلف.

2 ـ مكونات الإهداء:

يتكوّن الإهداء على المستوى التركيبي والمعماري من كلمات أو نص قصير، يحتوي على عناصر شخصية المرسل له، ويكون في بداية العمل الأدبي، قريبًا من صفحة التقديم وملازمًا للعنوان الخارجي للديوان، أو الحاشية الفرعية للنص الداخلي، ويتضمن عناصر الإهداء الأساسية: مرسل، ومرسل إليه، ورسالة، ومرجع، وقد يتحوَّل الإهداء إلى نص طويل يحمل الحدث، ويخوض في بعض المرجعيات والرموز (حمداوي، 2021).

3 ـ وظائف الإهداء:

مع التراجع الملحوظ للغرض الاقتصادي من وراء الإهداء واختفائه، يبرز الجانب المعنوي الذي أصبح استحقاقًا داخل الفضاء الرمزي المتبادل بين المرسل والمرسل إليه، أما إهداء النسخ مع التوقيع فهي ترتبط ببعض المناسبات، وتنتهي بتوقيع المؤلف نسخ للجمهور الراغب في اقتناء نسخة من العمل بإمضائه، مع تعليق مُقتضب يتجه فيه إلى تخصيص العلاقة ويفصح فيه عن تقييم ما، ممَّا يجعل المُتلقي قارئًا افتراضيًّا، وشخصية واقعية في آن واحد، حيث ينتظر المؤلف منه أن يقوم الحاصل على النسخة المُهداة بالتكرم وإنجاز قراءة العمل، وبذلك يصبح الإهداء دعوة إلى القراءة، وليس مجرد عمل هدفه اقتناء نسخة من الكتاب (جونات، 2008، ص55).

رابعًا ـ علامات النشر:

يندرج هذا العنصر ضمن العتبات النصية للمؤلَف، ويتكوَّن من إنتاج الناشر، يتعلَّق بالفضاء الذي يتضمَّن: الغلاف، وصفحة العنوان وملحقاتها، وتأخذ علامات النشر ـ غالبًا ـ شكل أيقونة، أو حروفًا بصيغة شعار أو حكمة أو نحوهما، وتتجه بعض منها إلى الطبعات الزهيدة المتوفرة بأعداد كبيرة، وهذا النوع من الطبعات يُعرف ب(طبعات الجيب)، وهي مرادفٌ للتكديس الذي يُعرف ضمن امتدادات التاريخ، وهذا العمل يمثل رسالة موازية ينبغي ألَّا يهملها الناقد عند الكشف عن قيمة العمل المنتج(منصر، 2007، ص33).

في حين نجد نوعًا من الطبعات يُعرف ب(السلسلة)، وهذا النوع يُحدِّد نوع المعرفة الأدبية والفلسفية والعلمية التي يندرج الكتاب ضمنها، وهي تشترك بدرجات مختلفة ـ في الوضع الاعتباري ـ مع العلاقة الأجناسية، التي تهيئ الأفق نحو انتظار إنتاج جديد، ويتصل به اختيار حروف الطباعة، ويكون الاختيار بحسب طبيعة المظاهر الأخرى التي يندرج الكتاب ضمنها، وكذلك بطبيعة دار النشر، والسلسلة التي ينتمي لها المؤلف، والفضاء المكاني للنص الذي تتقاطع فيه جهود المؤلف والناشر (منصر، 2007، ص34)، وبهذا يمكن القول: إنَّ العلامات تُعدُّ مظهرًا مصاحبًا للنص، بالنظر إلى دورها في بناء الدلالة، وإنعاشها للَّذة القراءة وإحالتها على شعرية النص.

المبحث الثاني ـ شعرية العتبات النصية في ديوان (لماذا تركت الحصان وحيدًا؟):

1 ـ عتبة العنوان:

يُعدُّ العنوان من أهم العتبات النصية للعمل الأدبي، فهو العلامة الدالة التي تسم الكتاب، وتميزه عن غيره، وتُوجِّه القارئ إلى استكناه مضامين النص وفكِّ شفراته، فالعنوان إذًا عتبة يتواصل من خلاله القارئ مع النص، ويساعده في تحديد هويته، ووصف خصائصه الشكلية والموضوعية.

يتموضع العنوان الرئيسي للديوان (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) في مقدمة الغلاف، ويندرج تحت هذا العنوان أقسام (درويش، د.ت، ص4 ـ 5):

* افتتاحية بعنوان: أرى شبحي قادمًا من بعيد.

1ـ أيقونات من بلور.

2ـ فضاء هابيل.

3ـ فوضى على باب القيامة.

4ـ غرفة للكلام مع النفس.

5ـ مطر فوق برج الكنيسة.

6ـ أغلقوا المشهد

المُلاحظ من العناوين السابقة أنَّها تمثِّل فصولًا من سيرة الشاعر مع وطنه وشعبه؛ ذلك أنَّ درويشًا من الشعراء الذين يرون أنَّ (أنا الشاعر) تتكوّن من ذوات مُتعدِّدة، قد تروي قصص جماعية يشترك في أحداثها العديد من أهله، فحينما كان يروي جوانب من قصص طفولته، لم يكن يرويها بإعدادها حكايةً خاصةً به، وإنَّما يصف فيها فترة زمنية، ومرحلة كانت طفولته جزءًا منها.

يُعدُّ عنوان الديوان محاولة فهم ملامح تكوين الطبيعة الفلسطينية، فقد اختار الشاعر (الحصان) كونه رمزًا للفروسية والشجاعة، والمروءة والأصالة في مُحاكاة لبلاده فلسطين، وعنوان الديوان مُوجَّه إلى المهاجرين الذين تركوا وطنهم وحيدًا بين يدي الصهاينة، ويندرج عنوان الديوان ضمن العناوين ذات الطابع الموضوعي، إلَّا أنَّ تصدره بالاستفهام يجعل منه مصدر إيحاءات تشي بانفتاح الديوان على فضاءات المُتخيِّل الشعري، وهذا الانفتاح تقتضيه الحاجة الفنية في الحدِّ من النبرة الغنائية، والاستفادة قدر الإمكان من الوظائف الإيحائية التي يُتيحها الصوت.

والناظر إلى عنوان الديوان يتساءل هل كان سؤاله مجرد سؤال؟ أو بركانًا أخفى (درويش) في طياته آلامه وأنينه، رُبما يكون سؤالًا للهاربين من ساحة المعركة، الذين حملوا أمتعتهم وآثروا الرحيل، سؤال يعلم الشاعر إجابته فلا ينتظر من أحد إخباره به، هو يسأل نفسه، بل يصرخ صرخات إيقاظ من كوابيس الأحلام، أراد منه الشاعر تشكيل ملحمة من ملاحم المقاومة، ومعركة ينتصر فيها الخير على الشر، هنا يصبح عنوان الديوان ليس مجرد حروف وكلمات، إنَّما نص مليء بالرموز والإيحاءات، (درويش، د.ت، ص 16)

إلى أين تأخذُني يا أبي؟
إلى جهة الريح يا ولدي

الابن يسأل والأب يجيب، ونحن نتساءل إذا كان السؤال له مبرراته، فلماذا جاءت الإجابة (جهة الريح)، لعلَّ رحلة الشقاء الفلسطيني، والمعاناة المتجددة، صارت ـ بحكم الاستمرارية ـ متلازمة لمسيرة المواطن الفلسطيني؛ ولأنَّ الأب نفسه لا يعلم الوجهة التي يقصدها، لهذا فإنَّه يبقي الإجابة غامضة صوب المجهول صوب الريح، (درويش، د.ت، ص16):

ومن يسكن البيت بعدنا
يا أبي ؟
سيبقى على حاله مثلما كان يا ولدي

يبدي الابن قلقه حيال وطنه الذي أُجبر على تركه والرحيل عنه، حيث رمز له بالبيت، فالوطن من منظور الشاعر بيت كبير، فكان جواب أبيه في غاية البساطة سيبقى على حاله ينتظر عودة أهله رافضًا توطين الغريب على ترابه، ويستمر السؤال بصيغة الحائر، (درويش، د.ت، ص18):

"هل سنبقى ، إذاً ، ههنا يا أبي؟
تحت صفصافة الريح
بين السموات والأرض

تكشف الصورة (صفصافة الريح) مرتكز السؤال عن حالة الضياع والفراغ، فالصفصاف هو نوع من الشجر لا يُثمر، والريح هنا تدلّ على المكان الخالي، ليأتي جواب الأب مليئًا بالقهر والأسى، حيث إنه يعلم سلفًا ما معنى التهجير، وأن يصبح المنفى الوطن الحقيقي للإنسان.

2 ـ عتبة اسم المؤلف:

تهيمن تجربة (محمود درويش) الشعرية على أفق المشهد الأدبي الفلسطيني، وتُوسِّع مداها حتى امتدت إلى المشهد العربي، ويندرج ديوانه (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) ضمن المجموعة التاسعة من إصداراته الشعرية، حيث انتقل الشاعر في هذا الديوان من الغنائية الشفافة إلى الملحمية الغنائية، إذ وُصفت أعماله بالطابع الدرامي، وبالأخص أسلوبه في السرد القصصي وتوظيفه داخل النص، الذي لم يكن غائبًا عن نصوصه الشعرية، وتتجلَّى أهمية ديوان الشاعر ــ من ناحية أخرى ـ في كونه مشروعًا لسيرته الذاتية، تتبع فيه (درويش) المراحل الواضحة من حياته، وتناول فيه المعاني الكبيرة، والأشياء المُؤثِّرة، فقد كان الشاعر فتىً صغيرًا عندما أُجبر هو وأهله وجزء من شعبه على الخروج القصري إلى الأراضي اللبنانية، ولعلَّ هذا المشهد تكرَّر عند الشاعر بطرق متنوعة، إلَّا أنَّه في هذه التجربة آثر أن يتصدر به ديوانه؛ ذلك أنَّ الشاعر يؤمن بأن الشعر أداة من أدوات المقاومة.

أ ـ الاسم الشخصي (محمود درويش):

وظَّف (محمود درويش) اسمه الشخصي لإنجاز وظيفة المؤلف منذ إصدار ديوانيه الأولينِ: أوراق الزيتون 1964م، وعاشق من فلسطين 1966م (درويش، 2005، ص7)، يُضاف إلى ذلك مزاولته العمل الصحفي، ونشاطه السياسي، ومنذ إصداراته الأولى أفصحت عن ولادة شاعر احتضن آلام شعبه الفلسطيني، مع حرصه على تحقيق الشرط الشعري والجمالي لقصيدته، وهذا ما منحه تمييزًا استثنائيًّا بين الشعراء الفلسطينيين (منصر، 2007، ص347).

استطاع الاسم الشخصي ل(محمود درويش) من تكوين صلات عاطفية وقومية ودينية بين القضية الفلسطينية، وبين آلاف القرَّاء العرب، حيث أرَّخت صرخاته القتل

الرمزي للقضية، بالتواطؤ مع الإعلام المدسوس؛ لذلك فإنَّ الاسم الشخصي ل(درويش) لم يعد اسم الحالة المدنية، بل تجاوزه ليصبح أسطورة شخصية، وعلامة لا تزال متدفقة إلى وقتنا الحاضر، تصنع مشهد القصيدة الجديدة ومآلتها في العالم، وبهذا لم تعد القضية الفلسطينية جرحًا شخصيًّا أو فشلًا سياسيًّا، وإنَّما أصبحت قصةً رمزيةً في الخطاب الشعري الذي يحمل الاسم الشخصي ل(محمود درويش)، وتُعيد بناء مآسي القتل في المُتخيَّل الإنساني، بقدرة الشاعر على سرد التاريخ بقدر من الرمزية بالغة القدم، دون أن يجعل من قضيته قضية هُلامية، مع المحافظة على ذاكرة المقاومة في غنائية ملحمية.

3 ـ عتبة الإهداء:

جاء الإهداء في ديوان الشاعر (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) بعد العنوان والفهرس، بصيغة الخطاب الذاتي المُوجَّه من قبل الشاعر، على النحو الآتي:

"إلى ذكرى الغائبين
جدي: حسين
جدتي: آمنة
أبي: سليم
وإلى الحاضرة: حورية، أمي"

تتكوّن عناصر الإهداء من: مُرسل الإهداء، ومُرسَل إليه، ومُكونات الإهداء، وجاءت على النحو الآتي:

الديوان	مرسل الإهداء	المرسل إليه	مكوناته
لماذا تركت الحصان وحيدًا؟	محمود درويش	الجد: حسين	ذكرى الغائبين
		الجدة: آمنة	
		الأب: سليم	
		الأم: حورية	إلى الحاضرة

يتضح ممَّا تقدَّم أنَّ مُرسل الإهداء هو (محمود درويش)، كما سنَّت عليه العادة في مثل هذه الحالات، والملاحظ أنَّ نوع الإهداء جاء من النوع الخارجي الخاص، وهذا النوع من الإهداء يكون إلى شخصية غير مشهورة، وفي الغالب تتعلَّق اجتماعيًّا بصاحب العمل، ويتبيَّن من ذكر الأسماء أنَّهم تربطهم علاقة اجتماعية بالشاعر، وبالتحديد علاقة عائلية (جده، جدته، ووالديه)، والمُلاحظ أنَّ الشاعر لم يكن يسعى من هذا الإهداء إلى التماس الدعم والسند المعنوي، فجُلُّهم قد فارق الحياة، إنَّما حاول الشاعر ربط عائلته

بديوانه، الذي أخذ على عاتقه المقاومة في سبيل قضية شعبه، وعائلته جزء من هذا الشعب؛ لهذا اتجَّه الشاعر إلى تخصيص هذا الارتباط، وتفسيره من خلال ذكر المرسل إليه وصلة علاقته بالشاعر، ويُحيل الإهداء المُكوَّن من عائلته بِمَا تتصف به من صبر وصمود وكفاح، وبين ديوانه الذي يُعدُّ انعكاسًا لهذه الصورة، فالديوان سيرة ذاتية للشاعر وللعائلة معًا.

4 ـ عتبة علامات النشر:

من خلال الاطلاع على منشورات الديوان يتضَّح أنَّه جاء مُتعدَّد الطبعات، ترجع كلها إلى دار شركة (رياض الريس) للكتب والنشر، يحمل علامات النشر: اسم الكاتب: محمود درويش، اسم الكتاب: لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟، وعدد الصفحات: 171 صفحة، التصنيف: روايات عربية، الطبعة الأولى والثانية (لبنان 1995)، الثالثة (لندن 1995)، مصدر الطبعة الثانية: مؤسسة محمود درويش، ومصدر الطبعة الثالثة: ملتقى الصداقة الثقافي، مكتبة الصداقة الإلكترونية، بعدد 84 صفحة، والصورة المُصاحبة: صورة الحصان، إضافة إلى أيقونة دار النشر.

يظهر من معلومات النشر السابقة أنَّ الشاعر اعتمد على دار (رياض الريس)، حيث أصدرتِ الشركة العديد من الكتب، وأنشأت مجلة "الناقد"، وجائزة "يوسف الخال، للشعر، وجائزة "الناقد" للرواية، وتُعدُّ الشركة مُحفزِّة للنقد، وقيِّمة الموضوعات، مع المحافظة على أناقة الشكل والمظهر، ورُبما هذا ما حفَّز (محمود درويش) لاختيار هذه المؤسسة لنشر جلِّ أعماله، ومن ضمنها ديوانه (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟).

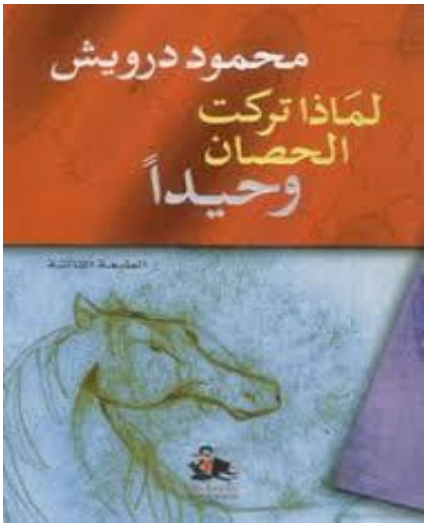

ومن جانب آخر فقد احتلَّت الصورة موقعها ضمن علامات النشر باعتبارها علامة دالة من خلال: الألوان، والمسافات، وأشكال التعبير، ففي الجانب التشكيلي نجد اسم المؤلف محمود درويش، وعنوان الديوان: (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟)، كلاهما وردا في الطبعة الأولى والثانية باللونين الأبيض والأسود، أمَّا الطبعة الثالثة باللونين الأبيض والأصفر، وفيما يختص بحجم الخط فقد حافظ على الحجم نفسه، مستمدًا من قيمة اسم الشخص (محمود درويش)، أمَّا صورة الحصان على الغلاف فتعود إلى صورة حصان عربي أصيل، ويرتبط الحصان بدلالات في الشعر الفلسطيني، فهو يرتبط بالجمال وعلامة للقوة مع المحافظة على الأصالة والمروءة، عدا عن كونه رمزًا للفروسية والعروبة، فهو يمثِّل رمزًا للعز والحرية، وبهذا يُعبِّر الشاعر بسيمياء الصورة عن عمق العلاقة بين الخصال المرتبطة بالحصان وبين مشروعية قضيته.

الخلاصة:

ترتبط عتبات ديوان الشاعر (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟) ارتباطًا وثيقًا بالقضية الفلسطينية، وتُعبِّر عن ملامسة للواقع من خلال الاتصال بين النص والقضية، فالرمز أصبح جزءًا من ثقافة المأساة التي يعيشها الفلسطيني، فمحور حديث الأب وابنه في طريق النزوح حديثًا واقعيًّا ملموسًا مسَّ جزءًا كبيرًا من الشعب الفلسطيني، وكل واحد منهم يشعر بأنَّه هو المقصود من هذا الحديث، حيث تتماهي رمزية القضية مع إهداءاته العائلية، فهي جزء من العائلة الكبيرة فلسطين، إنَّها رؤية (درويش) الشعرية التي اتخذت من اسمه شعارًا لها، ومن قصص شعبه عناوين لبعض قصائده.

النتائج:

من خلال هذه الورقة نخلص إلى الآتي:

1 ـ يُعدُّ ديوان الشاعر المُعنون: (لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟)، توصيفًا لسيرة الشاعر، وانعكاسًا موازيًّا لتجربة الواقع الفلسطيني، والعربي عمومًا، فقد حاول فيه الشاعر إعادة كرامة شعبه المسلوبة.

2 ـ خرج البحث إلى أنَّ النص الشعري المعاصر مرتبط بالعناصر المحيط بها، وأي حذف لتلك العتبات يجعل منه ضائعًا مبثورًا، فهي وسيلةٌ للولوج إلى النص، وسبيلٌ لسبر أغواره، ومعرفة خباياه.

3 ـ أدَّت عتبة العنوان الوظائف المأمولة منها، على حسب قول: جيرار جنيت، وهي الإغراء، والإيحاء، والدلالة، والتعيين.

4 ـ الاسم الشخصي لمحمود درويش علامة مسجلة، ارتبط اسمه بقضية، وأصبحا متلازمين.

5 ـ لعبت عتبة الإهداء دورًا مركزيًّا أسهم في شدِّ القارئ إلى ديوانه، ومقاربة بعض قصائده.

6 ـ زاوجت عتبة الصورة بين البساطة في الطبعة الأولى، والتركيب في الثالث، مُضمِّنة علامات سيميائية للصورة.

المراجع:

1. ابن منظور، محمد بن مكرم (1997). *لسان العرب* (ط1) بيروت: دار صادر.
2. جونات، جيرار (2008). *عتبات من النص إلى المناص* (ط1). تر عبد الحق بلعابد، تقديم سعيد يقطين، الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون ش م ل.
3. حمداوي، جميل (2021). عتبة الإهداء في الشعر العربي، موقع الإلكتروني: تاريخ الاطلاع 2021 /2/16
https://www.diwanalarab.com
4. خالد، خالد حسين (2007). *في نظرية العنوان مغامرات تأويلية في شؤون العتبة النصية* (د.ط) سوريا / دمشق: دار التكوين للتأليف.
5. درويش، محمود (2005). *الأعمال الأولى 1* (ط1). لبنان: مؤسسة رياض الريس.
6. درويش، محمود (د.ت) *لماذا تركت الحصان وحيدًا؟* (ط3). (د.ب): مكتبة الصداقة الإلكترونية.
7. قطوس، بسام (2001). *سيمياء العنوان* (ط1). عمّان: وزارة الثقافة.
8. لحيداني، حميد (2002). *عتبات النص الأدبي*، مجلة علامات في النقد، مج 12، ع46.
9. مفتاح، محمد (1990). *دينامية النص، تنظير وإنجاز* (ط2) بيروت/ لبنان: المركز الثقافي العربي.
10. منصر، نبيل (2007). *الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة* (ط1). المغرب: دار توبقال للنشر.
11. ناظم، حسن (1994). *مفاهيم الشعرية* (ط1) الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
12. يحياوي، رشيد (1998). *الشعر العربي الحديث ـ دراسة في المنجز النصي*. (د.ط). (د.ب): منشورات أفريقيا الشرق.